د ٠ عبدالرحمن منيف

ثلاث قصص قصيرة جدًا

عندما ابتعدت الباخرة .. كثيرا

اطلقت الباخرة صفيرها الثانية .. وبعد قليل سوف تتحرك . الاوراق الملونة تمتد كشريط لاينتهي بين الرصيف وكل شيء على الباخرة ، تريد ان تمسك بها ، ان تمنعها من الرحيل !

الات التصوير لا تتوقف ، البالونات الملونة تقذفها الانفاس الحارة نحو الباخرة ، باقات الزهور تحملها الايدي بفرح وبحزن .. الاوراق الملونة شريط لاينتهي !

جرت خطوانها بصعوبة كمن يدفع الى الموت ، وباقة الزهور مثل حمامة ترتاح على صدرها . كانت دموعها تتساقط .. تتساقط بغزارة ، والعيون تنشد اليها ، تتابعها في رحلتها الحزينة وهي تبدأ بصعود سلم الباخرة .

ثبت نظارته ، مسح الدمعة التي خبأها طويلا ، اضطربت حركاته، مد يديه ، انزلهما ، اضطرب اكثر حين وصلا الى النقطة التي يجب ان يفترقا عندها ..مد يده برجاء حزين الى شعرها ،الى جبينها الى كتفها ، امسك بيدها يريد ان يمنعها ، لكن فجأة ، وبعصبية قبلها وركض الى الرصيف !

بدأت الباخرة تتحرك بهدوء ، واخذت الاوراق تمتد وتطاول ثم مالبثت ان تمزقت وتساقطت في مياه البحر وعلى ظهر السفينة .. وبدأت الايدي تتراخى حتى كفت عن الحركة ، وتداخلت ملامح الوجوه ثم بدأت تغيب تدريجيا .

وقفت على الحاجز تلوح له بباقة الزهور وتبكي . .. ظلتهناك حتى ابتعد كل شيء ولما لم تعد تحتمل ركضت بعصبية الى مقصورتها وكأن شيئا ما يطاردها !

هدأ كل شيء في ممرات الباخرة .. ولم تعد ترى الا اطيافا بطيئة تظهر مسرعة ثم تتوارى في الغرف ، في البار ، في الزوايا ! وظلت وحدها تملأ الرأس ، مثل الدوار ولا تغيب .. وسكرت بحزن شديد .

حاولت ان اراها مرة اخرى ، انتقلت بين البار والمطعم مرات كثيرة طوال النهار .. لكن لم ارها .

وفي المساء وانا اشرب كأسا من الكونياك قدرت ان الدموع التي رأيتها تتساقط من عينيها خلفت فيها هذا الحزن الذي يسيطر علي الان .. وتذكرت اشياء حزينة اخرى !

وفي اليوم التالي هاج البحر ، تساقط الركاب من الدوار .صعدت الى ظهر السفينة لاتغلب على حالة الغثيان التي بدأت تنهشني ... رأيتها هناك .. كانت وحيدة حزينة متعبة .. وتنظر باتجاه الشاطئ الذي تركناه ! كانت تحدق في الفراغ .. وتأكدت انها لا ترى سوى شيء واحد .. ولكن لم تصبر طويلا .. ضربت الحاجز بعصبية ومرارة وركضت .

ظهرت في المطعم ، نظر اليها الكثيرون ، لكنها لم تنظر الى أحد ، والطعام الذي قدم اليها تركته دون ان تمسه .

اثناء الليل ، ونحن في صالة السينما ، كانت عيناي ترقبان ، تنظران في الظلام لعلي اراها ولم يكد الفيلم ينتهي حتى رأيتها في زاوية الصالة ، كانت تربض مثل قطة صغيرة . حاولت ان استبعد صورته وهو يضغط نظارته ، وهو يمسح الدموع الصغيرة المرتجفة التي بدأت تتساقط من عينيه مثل حبات الزئبق الصغيرة ، ولم يحاول ان يمنعها .. فكان مظهرها وهي تدخن سيجارتها في الزاوية يذكر باحزان لا تنتهي .

في اليوم الثالث .. والباخرة تصل ميناءها الاخير ، حملت حقيبتي ونزلت .

في لحظة ما التفت الى الوراء .. كانت تنزل السلم ، معطفها الكستنائي يلفها بشدة ، حركتها رشيقة ، راقصة ، ويدها تماما تحت ابطه ، كانت تتأبط شابا قصيرا متينا ، كانت تنظر اليه بلهفة مجنونة وتضحك ، وكانت تمسك به بقوة .

وقفت انتظر .. في لحظة مجنونة مرت .. لم تر احدا ، كانت تمسك الباب بقوة ، وتنظر اليه بفرح وتضحك !

وفي تلك اللحظة عرفت اكثر من أي وقت لماذا يصبح الانسان حزينا !

★★★

عالمان

الى عمانوئيل لبيب

.. في تلك المدينة الالمانية الصغيرة ، التي اعيد بناؤها من جديد ، بعد ان هدمها الامريكيون في الغارات الاخيرة من الحرب .. ذهبنا انا وصديق الى بار صغير ، واردنا ان نكون وحيدين في الليلة الاخيرة .. اردنا ان نقول الكلمات الاخيرة قبل السفر !

جلسنا في ركن منزو ، وبدأت زجاجات النبيذ تفرغ واحدة بعد اخرى ، وقد حاولنا مع كل كأس جديدة ان نخلق جوا خاليا من الحزن .

ـ تذكرنا مئات الاشياء الصغيرة ومئات الوجوه ، حاولنا ان نستعيد ذكريات بعيدة ونعطيها شيئا من حرارة الماضي لتبدو كبيرة خارقة !

الوجوه حولنا تتحرك ، تتغير ، ولكن لا نراهـا ولا نحس بها الا اطباقا ، وصديقي يرد باختصار على تحيات الذيـن يعرفهم ، وفـي محاولة غريزية للدفاع لابعاد أي زائر او عابر م نالجلوس معنا . اما محاولات الموسيقي المتقاعد فقد انتهت ، بعد ان قابلناها ببرود ، لكي لا نتكرر تجربة ليلة سابقة .. عندمـا شـاركنا طاولتنا على الغناء وارغمنا اكثر على سـماع اغانيـه .

في احد الاركان جلس رجل مسن وحيدا .. كان ينظر بسرعة نحونا بين فترة واخرى ، وكأنه يبحث ، عبر الدخان واقـداح البيرة، والابتسامة الحزينة التي ترتسم على شـفتيه ، عن شـيء ما .. كنا نهرب من نظراته ، وشغلنا عنه الذكريات .. وعندما تلتقي نظراتنا ثانية كانت عيناه تعبران عن رغبة ما ، وتتحرك يـده بعصبية حاملة كأس البيرة لنشرب معـا !

ونغيب في الذكريات .. نتذكر انسانا لـم نـره منذ سنوات ، وتمر اطياف بشر منسيين .. وتتذكـر .. ثم بلهجة المودة والتهديـد نطلب الى بعضنا الا ننقطع عن الكتابة .. ان نكتب عن كل شيء ، وان نعيش تجارب كبيرة ، وان نغرق في حياة تفيض برائحة البشر والعالم ، لكي نتعرف على البشر وهمومهم ، وان نسكر ونضحك ونغامر ... نكتشـف ونتعلم !

وتعود النظرات لتلتقي سريعـة كأنها تخـاف شيئا ، وتبرق عينـاه بذات الفـرح وهو يرفع يده بالكأس .

انقضى اكثر الليل .. لم يبق في البـار الا نحن وذاك الرجـل المسن وثلاثة رجال انضم اليهم الساقي وبدأوا يلعبون الورق .

ومن ركنه البعيد .. بدأ يغني .. كانت اغنيـة حزينة متعبة ، لونتها كؤوس البيرة برتابة حادة .. لم يكن الرجل المسـن يكتفـي بالغناء ، كان ينقر على الطاولة بضربات بطيئة تشبه وقع حوافر الخيل .. ومـا كدنا ننظر اليه هذه المرة حتى كانت تلك النظرة مثل جسر اقيم في لحظة .. فما كان منه الا ان حمل كأسه .. وجـاء

وقف فوق رؤوسنا ، ونظـر الى كل شيء بهدوء ، نظر الينـا والى الجدران والستائر والدخان .. ثم امال رأسه واخذ ينصت الى المطر ، وشعرنا ان جوا صعبا يمتد بيننا .. لم نسـتطع ان ندعـوه الى الجلوس ولم نستطع ان ننصرف عنه .. كنا نريـد تصرفا مـا ينقذنا من الصمت ويبتلع نظراته التائهة الحزينـة !

وضع كأسه على الطاولة المجاورة وانحنى فوقنا ، بعـد ان مـد يديه مثل دعامتين على طاولتنـا ..

الصمت ما زال حادا مثل وتر مشدود ، وعينـاه تـدوران ، تحدقان في الفراغ ، تنظران الينـا بحزن وتعب .. واخيرا جاء صوته ثقيلا غامضـا :

ـ بقي لي عشرة ايام .. نعم عشرة ايام .. اين يمكن ان اذهب ؟ اريد بشرا .. آه لو لم تمت .. الان انتهى كل شيء !

وبدأت نظراته تأخذ شـكلا قاسيا ثم عصبيا ، وبعد فترة صمت قـال بتحـد :

ـ اشربوا .. تحـدثوا .. اضحكوا .. ولكن لا اريد ان اذهب الى البيت .. الى ذلك الجحيم .. وهذا المطر القذر لم ينقطع منذ ثلاثة ايام .. اين يمكن ان اذهب ؟ مع من اتحدث ؟

وفي لحظـة جمع كل نفسه ، اعتدل في وقفته ، واخذت ملامحه شـكلا قاسيا .. نظر الينا وهو يهز رأسه ثم قال :

ـ لا يمكن ان نتحدث الان .. لقد اردت ان نكون اصدقاء ، لكنكم كنتم بعيدين .. سأشرب كأسي وامشي .. لا فائدة .. لقد ماتت زوجتي قبل أسبوع .. وابنتي الان في رحلة مع صديقها !

وضحك بسخرية ثم اضـاف :

ـ عشرة ايام من الاجازة سوف اقضيها بشكل ممتع !

وبعصبية شرب كأسه دفعة واحدة وخرج

كان المطر ما يزال يتساقط عندما خرجنا .. لم نكد نمشـي بضع خطوات حتى وجدنا الرجل يستند الى جدار ويبكـي .. كـان يبكـي بحرقـة !

ومشينا بصمت .. ولم نستطع ان نستعيد اية ذكريات اخرى .

★ ★ ★

عملة مزيفة

تموز .. الساعة تتجاوز الثانية ، ريح ساخنة مغبرة تلفـح الوجوه ، اسفلت الشارع يعكس الشمس الحارقة ، انتظار مشحون بالقرف ، آلاف الشتائم تندلق الى الداخل دون صوت .. الذباب ينتقل فوق اكداس اللحم باسترخاء لزج ، السكين تغوص في الذبيحة المعلقـة مثلما تغوص في القلب ، صربها يشـبه صرخة طائر مذبوح ... الاشياء في حالة غرق ... سقوط .. عصبية يائسة .. والكلمات تنزلق بتعب ورخاوة لتصدم بالضحكة المرسومة الىجانبغمزةالعين!

ببلاهـة اقف . كل شيء حولي لونه اصفر : الجدران ، اللحم ، اكياس الورق ، الوجوه ، السيارات العابرة .. والوجوه مرة اخرى!

فتاتان .. اختان ، رأس الكبيرة يرتفع فوق مستوى الـرف المركوم بقطع اللحم والعظام .. عيناها تنظران الى كل شيء بخـوف وباستطلاع . وجه الصغيرة يكاد يلتصق بالجدار .. وبين لحظـة واخرى تقف على رؤوس اصابعها لترى شيئا .. وقبضتها تمسـك بثوب اختها مثل استغاثة اخيرة !

ـ نصف كيلو شـرحات

ـ عندك كبـده وقلوب ؟

ـ نصف اوقية هبرة لمريض .. الله يستر عليك !

ـ ٣ كيلو بالعظـم

صوت الريح ، صوت السيارات ، الاعباء ، القرف ، الذباب الذي لا يخاف يتنقل فوق اكوام اللحم ، فوق العظام ..

أخذ الجميع .. لم يبق غيري والصغيرتان

اريد لحمـا .. لا اريد أي شيء ! اه لو انام الان .. في هـذه اللحظة ، لو اغرق في ماء بـارد .. بارد ، لو اتخلص من كل شيء ، من جلدي ، من عيني ، من اللزوجة التي احسها فوق روحي .. اه لشد مـا اكره كل من حولي : اللحم ، الريح ، الاسفلت .. اه لو انقيـأ !

مدت الكبيرة يدها : مجموعة من الاكياس والاوراق مطوية بفوضى .. وبصوت صغير .. صغير :

ـ اريد عظامـا بدل هـذه

يمسك الاوراق ، يقلبها ، يطويها ، يعيدها ، .. دون كلمات .. يحرك يده بقرف تنزلق الصغيرتان الى الخارج .

في لحظة توقف كل شيء ، تجمد تماما : الفكر ، الرغبـة ، الريح ، الشمس ، النوم ، الماء البارد ، الكلمات .. كل شيء ..

اللحظة الثانية : القبضة الصغيرة تفلت من كل شيء بجنون .. تمر سيارة مسرعة .. تترك خلفهـا كومة من اللحم الطري المعجـون بالـدم .

الاكياس .. الاوراق تتطايـر

اجلس على الارض .. وأتقيـأ

وتبدأ الريح مرة اخرى .. ريح لافحة مغبرة تكنس الاسفلت واللحم الطري والذباب .. وكل شيء .. كل شيء !

بغـداد